المبحث الأول

قيمة حسن التعليل البلاغية

من قضايا البلاغة وصور البديع التى تحمل ألوان البراعة فى القول والافتنان فى الكلام ، وتدل دلالة قوية على شدة التمكن من اللغة والبصر بدقائق المعانى ولطائفها[1] ، ذلك اللون البلاغى المعروف عند علماء البلاغة باسم «حسن التعليل» ، وتكمن قيمة هذا اللون البلاغية فيما أسهم به من قسط وافر فى إثارة الخيال ، وتوضيحه للمعنى المخيل بتقريبه من الحقيقة ، وتقريره فى ذهن المتلقى بتحسين الصورة القولية وجعلها مقبولة .

وإذا كان الإبداع فى أيسر تعريف له : هو القدرة على التخيل ... القدرة على عبور حواجز العرف والتقاليد السائدة فى رؤية الأشياء[2] ، فإن حسن التعليل يعد فى الذروة من ذلك ، بل إنه ليعد دليلا من أدلة القدرة على الإبداع ، لأن الشخصية المبدعة إنما تعطى - إذا كانت ذات قدرة على الولوج فى صميم الحياة والآخرين - نبضا حيًا يختلف عن الكلام السطحى الشكلى المفكك ... وذلك راجع إلى أن هؤلاء المبدعين عارفون لزوايا خاصة يتلامح حولها رفيف لا يرى إلا بعين مدققة وحس مرهف[3] .

وهذا اللون مستملح لما فيه من الظرافة والطرافة والإعجاب والإغراب ، وكذلك لما فيه أيضا - من حسن التخير لمواقعه اللطيفة مع شدة احتياجه إلى الرفق والحذق[4] ، وتلك كما يقول العلماء - صورة من صور الإقناع

---

(١) ينظر علوم البلاغة ص : ٣٥١ المراغى .

(٢) ينظر مقال : العملية الإبداعية من منظور تأويلى ، مجلة فصول : مجلد (١٠) العدد : ١ ، ٢ ص ١٠ سحر مشهور .

(٣) ينظر جماليات الأسلوب (٢) ص : ٢٠ د. فايز الداية .

(٤) ينظر أسرار البلاغة ٢ / ١٢٨ .

البلاغى[1] ، التى تدل دلالة أكيدة على أن هذا اللون إذا ما أحسن استخدامه ، واستعمل الاستعمال المشروع بأن لا يكون مصطنعا لذاته ، بل لما يمكنه من انسجام أدائه اللفظى مع مضمونه الوجدانى ... كانت له وظيفته الحيوية فى إرهاف الشكل حتى يكون أكثر حملا للمضمون وأجود انسجاما مع ظلاله الدقيقة ، وأقدر على إثارته فى وجدان قارىء الأدب إثارة سليمة صحيحة لا سقم فيها ولا ميوعة ولا تظرف ولا تنطع[2] .

فهو نمط تركيبى فى مقامه أصيل له قسطه الوافر المهم فى الأدب لا يكون لغيره ما كان له .

وإذا كانت البلاغة - كما يقول العلماء - هى أن يبلغ المتكلم من نفس سامعه من اقتناع : ترغيب أو ترهيب ، تشويق أو تعجيب ، إدخال سرور أو حزن بنقص أو زيادة ، مدح أو ذم إلى غير ذلك ، فمما لا شك فيه أن « حسن التعليل » من ألوان البلاغة التى تفى بذلك الغرض ومما تتوشج العلاقة وتتوثق الصلة بينها وبينه، وذلك لأن البلاغة لا تسأل عن جوهر العلة وغايتها، وإنما تسأل عن «التعليل» أى كيفية صوغ العلة ، عن أسلوب عرض العلة وطريقة اكتشافها والربط بينها وبين المعلول ، البلاغة تسأل عن كيفية توصيل مفهوم العلة إلى المخاطب ، وعن البراعة فى تصوير العلة والمعلول فى إطار من التناسب[3] .

وإن هذا ليعد - أيضا - أثرا من آثار المعانى الثانية فى الأدب ، لأنه لا يوجد نص .. على تلك الهيئة إلا وهو مشحون بما يدل على التجربة ومثير لكوامن الإحساس فى القارىء منقولة من نفس الأديب عن طريق الموصل الجيد وهو النص[4] .

---

(١) ينظر دراسات فى البلاغة ص ١٤ ، ١٨ د. محمد بركات حمدى أبو على ، ط دار الفكر - عمّان - الأردن .

(٢) ينظر الشعر الجاهلى ١ / ١٧ د. محمد النويهى .

(٣) ينظر البديع تأصيل وتجديد ص : ١٨٣ د. منير سلطان ، ط منشأة المعارف بالاسكندرية .

(٤) ينظر المعانى الثانية ص : ٥١ . د. فتحى أحمد عامر ، ط . منشأة المعارف . الإسكندرية .

من أجل ذلك كان هذا البحث جديرا بالبحث والدراسة وبيان حقيقته ومعناه والأطوار التى مر بها فى نشوئه حتى استوى فنا له أثره فى الأدب العربى .

وقد أشار الإمام عبد القاهر الجرجانى إلى أهمية هذا اللون وأولاه العناية - وإن لم يحرره بذلك الاسم - عند كلامه على التشبيه وعقده : « فصلا فى الأخذ والسرقة وما فى ذلك من التعليل وضروب الحقيقة والتخييل »[1] ؛ وهو فى ذلك يحاول إظهار الفرق بين المعانى العقلية والمعانى التخييلية ، وإرجاعه اللون الثانى منها - وهو المعانى التخييلية - إلى الحذق والبراعة فى التصوير[2] .

كما تحدث عنه - كذلك - عند الكلام على فنية ذلك اللون وبراعته بقوله : « فمنه ما يجىء مصنوعا قد استعين عليه وبالرفق والحذق حتى أعطى شبها من الحق ورونقا من الصدق باحتجاج يخيل وقياس يصنع فيه ويعمل ومثاله قول أبى تمام :

لا تنكرى عطل الكريم من الغنى فالسيل حرب للمكان العالى

فهذا قد خيل إلى السامع أن الكريم إذا كان موصوفا بالعلو والرفعة ، وكان الغنى كالغيث فى حاجة الخلق إليه وعظم نفعه، وجب بالقياس أن ينزل عن الكريم ، نزول ذلك السيل عن الطود العظيم ، فالعلة فى أن السيل لا يستقر على الأمكنة العالية أن الماء سيال لا يثبت إلا إذا حصل فى موضع له جوانب تدفعه عن الانصباب، وتمنعه من الانسياب، وليس فى الكريم والمال شىء من هذه الخلال »[3] .

فعبد القاهر بهذا يشرح الفرق بين العلة الحقيقية المنطوية فى الأشياء ، والعلة الشعرية أو التخييلية التى يبتدعها الشعر ، وكأن الشعر يخلق الأشياء خلقا آخر ، وتودعها أوصافا أخرى ، فالمكان العالى السيل حرب له لسموقه وارتفاعه واستغنائه ، وكأن العلو فيه ترفع وكبرياء وإباء ، وهذا هو المعنى الشعرى أو الغلالة الخيالية التى يلقيها الشعر أو الخيال الشعرى على الأشياء .

وقد ورد فى آثار العلماء - بعد الإمام عبد القاهر - ما يوضح أثر هذا اللون فى

---

(١) ينظر أسرار البلاغة ٢ / ١٢٨ عبد القاهر الجرجانى

(٢) ينظر أسرار البلاغة ٢ / ١٣٦ ، معجم مصطلحات النقد العربى القديم ١ / ٣١٣ د . أحمد مطلوب .

(٣) ينظر أسرار البلاغة ٢ / ١٢٨ ، ١٢٩ عبد القاهر الجرجانى .

الأسلوب ونفس المتلقى فها هو العلامة العلوى يقول : ... من أجل أن إثباته الشيء معللا آكد فى النفس من إثباته مجردا عن التعليل »[1] ، وكذلك ما ورد من قول الإمام الزركشى : إن ذكر الشيء معللا أبلغ من ذكره بلا علة ، لوجهين :

أحدهما : أن العلة المنصوصة قاضية بعموم المعلول ...

الثانى : أن النفوس تنبعث إلى نقل الأحكام المعللة بخلاف غيرها ..... وغالب التعليل فى القرآن الكريم على تقرير جواب سؤال اقتضته الجملة الأولى وهو سؤال عن العلة »[2] .

وقد أرجع العلماء وجه الحسن فى هذا اللون البلاغى إلى أنه يظهر ما ليس بواقع، متخيلا كالصحيح الواقع ، وعدوا ذلك شرطا محسنا لا اعتبار موجب له[3] .

وإذا كان القرآن الكريم يعلل ، والفيلسوف يعلل ، والعالم يعلل ، والفقيه والفنانُ ، ولكل تعليل أدواته ومنهجه وطابعه ونتائجه[4] ، فإننا نلحظ أنه بينما يلتزم الفيلسوف والعالم والفقيه بأقيسة متعارف عليها ويدورون فى فلكها ، يخرج الفنان المبدع من هذا الإطار المحدد ليسبح فى أفلاك من صنعه وآفاق من خياله[5] ، وهذا بعينه هو الاختراع والإبداع الفنى والشاعر فى ذلك إنما يحلق فى سماء الخيال ويتجرد من هذا العالم الذى يجعل لكل شيء سببا منطقيا معقولا ، ويتخلص من قيود الصدق ثم يهبط إلى سلسبيل الكذب[6] - الفنى - فيغترف منه غرفة بيده ثم يخرج بين ذلك الخيال البارع ، وهذا الكذب الرائع فتتخلق صورة من أجمل الصور الذهنية يخفف فيها الخيال من غلواء الكذب - أى الفنى - حتى يحاول أن يجعله مباحا ،

---

(١) ينظر الطراز ٣ / ١٣٨ ، ١٣٩ العلوى اليمنى .

(٢) ينظر البرهان ٣ / ٩١ للزركشى ، معجم المصطلحات البلاغية ١ / ٣٠١ د. أحمد مطلوب .

(٣) ينظر الإيضاح - بغية الإيضاح ٤ / ٥٢ .

(٤ ، ٥) ينظر البديع فى شعر شوقى ص / ٢٦٧ د. منير سلطان .

(٦) ليس المقصود بالكذب هنا معناه الأخلاقى وإنما المقصود به ما أشار إليه الإمام عبد القاهر بقوله فى التخييل : « هو الذى لا يمكن أن يقال إنه صدق ، وإن ما أثبته ثابت وما نفاه منفى ... » (أسرار البلاغة ٢ / ١٢٨) وكذلك قوله : « وستمر بك ضروب من التخييل هى أظهر أمرا فى البعد عن الحقيقة تكشف وجهه فى أنه خداع للعقل وضرب من التزويق » (أسرار البلاغة ٢ /) .

ويخفف الكذب من غلواء الخيال حتى يحاول أن يجعله حقيقة مسلمًا بها فيرتاح لذلك العقل وتطمئن النفس ، فالذى يخفف الكذب هو الخيال الجميل والقدرة الفائقة على اختراع المعانى المستظرفة[1] .

فسر الحسن والروعة فى « حسن التعليل » إنما يرجع إلى الصنعة فى الخيال والطرافة والإيهام بالكذب من الأديب المبدع الذى يرينا ما ليس بواقع متخيلا كالصحيح الواقع ، وهذه القدرة الفائقة على الاختراع وتلك الرؤية الخيالية فى الإبداع إنما تنسب إليه لأنه هو وحده القادر على الاحتيال للحجة باحتجاج يخيل وقياس يصنع فيه ويعمل[2] .

* * *

(١) ينظر حسن التعليل ص ٦ ، ١٠ حسن سليم طنطاوى ، ط المنيا .
(٢) ينظر أسرار البلاغة ٢ / ١٢٨ ، ١٢٩ .